منظومة الثقافة في العصر الجاهلي كمصدر من مصادر الحضارة الإسلامية

The system of culture in the pre-Islamic era: A source of Islamic civilization

أ.د. سعاد سيد محجوب: أستاذ الأدب والنقد، جامعة منيسوتا الإسلامية بأمريكا، فرع تركيا قسم اللغات.

Prof. Dr. Suad Sayed Mahjoub: Professor of Literature and Criticism, Islamic University of Minnesota, USA, Turkey Branch, Department of Languages.

Email: suadsayedmahgoub@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v3i9.659

الملخص:

هدفت الدراسة إلى التعرف على منظومة الثقافة في العصر الجاهلي مصدر من مصادر الحضارة الإسلامية، وكذلك معرفة ثقافة العصر الجاهلي؛ التي شكلت منظومة تفاصيل الحياة اليومية يومئذ، وبالتالي محاولة الوقوف على مدى تفاعلها مع الحضارة الإسلامية، واعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي. وخلصت الدراسة إلى عدد من النتائج منها: الحضارة الإسلامية لم تكن نتاج تلاقح ثقافات متباينة أو خلاصة ما جادت به القرائح البشرية من رؤى وأفكار كذلك خلصت الدراسة إلى أن الحضارة الإسلامية ثمرة طيبة هيأ لها فاطر السموات والأرض الأسباب بنزول الوحي على المصطفى ﷺ، وكتب الله تعالى لها في سابق علمه التميز والتفرد والغلبة وعلو الكعب على جميع الحضارات التي صنعتها الأمم والشعوب؛ لكنها تفاعلت مع البيئة التي اختارها الله تعالى لتحتضن رسالته التي وجهها للثقلين، كما تفاعلت مع الثقافات الأخرى والحضارات المتباينة وأثرت فيها وتأثرت بها، وهكذا تركت منظومة الثقافة في العصر الجاهلي بصماتها في الحضارة الإسلامية؛ التي كتب الله تعالى لها الفوز والغلبة على جميع الحضارات. من أهم التوصيات: ضرورة لفت الانتباه إلى أهمية المحافظة على التعاليم الإسلامية، والتحلي بالفضائل والمكارم وعكس الوجه الحضاري والإنساني للإسلام، لأنه أساس الحضارة التي جمعت كل المقومات الضرورية والأساسية للتمدن والتحضر؛ لأنّها من لدن حكيم خبير.

الكلمات المفتاحية: العصر الجاهلي، منظومة الثقافة، الحضارة الإسلامية.

Abstract

This study entitled “The system of culture in the pre-Islamic era, a source of Islamic civilization” aims to study the culture source in the pre-Islamic era; which was formed from the day-to-day life of the people of the era, with an attempt to determine the extent of its influence on Islamic civilization. To this end the study relied on a descriptive analytical approach.

The study reached a number of key results including Islamic civilization was not the result of the cross integration of different cultures, nor a summary of the ideas of previous civilizations. In addition, Islamic civilization has been predestined to have a global impact, demonstrated by an unmatched level of integration and adaptability to changes in surrounding environment and different cultures in such a manner that enriches all

aspects of mankind lives. Thus, the cultural significance of the pre-Islamic era cannot go unnoticed.

Among the important recommendations the study highlighted is the preservation of Islamic teachings because they are the basis of Islamic civilization, as its based on divine revelations, because of versatile approach to establishment of civilization that adapts to the changing world and ensure the sustainability of its people.

Keywords: pre-Islamic era, culture system, Islamic civilization

المقدمة:

لا يزيد الوعاء الزمنى للعصر الجاهلي على أكثر تقدير عن قرنين من عمر الزمان، وكانت جزيرة العرب مسرح أحداثه ومرتع ثقافته وعاداته وتقاليده، وأعرافه، وكانت هذه الفترة الزمنية حافلة بشتى أنماط النشاط البشري، وشهدت حراكًا فكريًا وثقافيًا، فضلًا عن علومهم ومعارفهم، وعلى الرغم من بدائيتها وبساطتها؛ لكنها تواكب متطلبات حياتهم اليومية وبيئتهم المحلية.

مخطيء من ظن أن العصر الجاهلي عصر ضرب فيه الجهل بأطنابه في كل مناحي الحياة، لكنه نسب إلى الجهل لحياة السفه والطيش؛ نسبة لعدم وجود شريعة سماوية؛ تنظم حياتهم وترشدهم إلى سواء السبيل، على الرغم من وجود بقايا من شريعة إبراهيم . عليه السلام . وبعض الديانات مثل اليهودية والنصرانية وغيرها من المعتقدات التي كانت سائدة.بينما كانت هنالك شريحة منهم تسمى بالموحدين مثل أمية بن أبي الصلت وكان قد درس كتب النصارى وعاف عبادة الأوثان وشرب الخمر، وأنشد قائلًا:

إِنَّ آياتِ رَبِّنا باقياتٌ ما يُماري فيهِنَّ إِلا الكَفورُ

ثُمَ يَجلو النَهارَ رَبٌ كَريم بِمَهاةٍ شُعاعُها منشورُ [1]

منظومة الحياة في العصرالجاهلي كانت واضحة الملامح والقسمات، اعتمد هيكلها على النظام القبلي؛ حيث تتمركز السلطات في يد زعيم القبيلة وبحكم زعامته يخول له وضع الضوابط الأساسية

[1] يموت، بشير (1934م)، ديوان أمية بن أبي الصلت، لبنان: المكتبة الوطنية، ص38.

للسياسة الداخلية للقبيلة، وتنظيم علاقتها مع القبائل الأخرى، وهذا الجانب يشكل محور السياسة الخارجية، وعقد التحالفات وإبرام الإتفاقيات، وكل ما يعزز من مكانة القبيلة بين القبائل الأخرى، والتفاضل بين القبائل يكون في الجانب الحربي من ناحية عدد الفرسان والعدة والعتاد.

بنزول الوحي الأمين على المصطفى ﷺ بدأ الظلام ينقشع شيئًا فشيئًا، وأشرقت الأرض بنور ربها، وتهيأ من شرح الله صدره لاستقبال الرسالة السماوية وتعاليمها السامية؛ التي غرست فسائل الحضارة الإسلامية، فالقرآن الكريم هو المصدر الأول للحضارة الإسلامية التي تقاصرت أمامها أعناق الحضارات؛ التي كانت سائدة يومئذ، وكانت السنة النبوية الشريفة هي الرافد الثاني من روافد الحضارة الإسلامية، لقد شرف الله تعالى بادية بني سعد حيث رضع ﷺ هنالك، وشب على الفصاحة؛ ثم بعثه ربه في الأميين رسولا، وأيده بالمعجزات المادية التي أيد بها من سبقه من الرسل والأنبياء عليهم السلام، كذلك خصه الله تعالى بالمعجزة العقلية وهي القرالكريم؛ فتحدى القرآن عرب الحجاز من جنس الشي الذي كانوا يفخرون به وهو الفصاحة والبلاغة وحسن البيان.

ثالث مصادر الحضارة الإسلامية يتمثل في منظومة الحياة الجاهلية ومحاورها؛ الدينية والسياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية، وكل هذه المحاور كانت لا تخرج من مضمار عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم، فضلًا عن نمط الحياة؛ الذي كان سائدًا يومئذ. لقد أمَّن الإسلام على بعض العادات والتقاليد التي كانت سائدة؛ والتي تندرج تحت مكارم الأخلاق أو الفضائل؛ من كرم ووفاء وشجاعة ونجدة وإغاثة للضعيف والملهوف وحماية للجار وغيرها من الفضائل"[1] وعندما سأل ﷺ عن معادن الناس قال:"...، فَخِيارُكُمْ في الجاهليةِ خِيارُكُمْ في الإسلامِ إذا فَقِهوا "[2] لقد هذب القرآن الكريم بعض عادات الجاهلية وتقاليدهم، التي تتناسب مع التعاليم الإسلامية، وصبها في قوالب تتلائم مع تعاليم الإسلام وسماحته، كما رفض القبيح منها بل حرمها، ومن هنا يتضح لنا مدى أثر ثقافة العصرالجاهلي في الحضارة الإسلامية.

إشكالية الدراسة:

ترتيبا على ما سبق ذكره يمكن بلورة المشكلة البحثية في الأسئلة الآتية: هل كان للعصر الجاهلي ثقافة خاصة به؟ هل تفاعلت ثقافة العصر الجاهلي مع منظومة الحضارة الإسلامية؟ هل يوجد في تقاليد عرب الجاهلية وعاداتهم وأعرافهم بعض الإيجابيات، أم كانت حزمة من السلبيات؟ هل تركت بعض العادات أو التقاليدالايجابية؛ التي كانت سائدة في العصر الجاهلي بصماتها في

[1] البخاري، محمد (1987م)، صحيح البخاري، تحقيق، البغا، ديب، بيروت: دار ابن كثير، كتاب الأدب المفرد. رقم 273.

[2] المصدر السابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ، حديث رقم 3383.

الحضارة الإسلامية؟ هل كان المجتمع الجاهلي منغلقًا أو متقوقعًا على نفسه، وإلى أي مدى كان يتفاعل مع المجتمع الخارجي؟

كل هذه التساؤولات وغيرها ستكون موضع البحث والتنقيب في هذه الدراسة.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى معرفة ثقافة العصر الجاهلي؛ التي شكلت منظومة تفاصيل الحياة اليومية يومئذ، وبالتالي محاولة الوقوف على مدى تفاعلها مع الحضارة الإسلامية، كذلك من أهداف الدراسة الإجابة عن التساؤلات التي وردت في المحور السابق.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الدراسة من أهمية العصر الجاهلي الذي اختاره المولى عز وجل توقيتًا لبداية نزول الوحي الأمين، لذلك لابد من الوقوف عنده؛ وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه؛ لمعرفة المحاور الإيجابية في ثقافته، كذلك تنبع أهمية الدراسة من أهمية الحضارة الإسلامية، التي غرس الدين الإسلامي فسائلها في أرض الحجاز؛ ثم انطلقت نحو العالمية، وأينما حلت أرست أسس الحضارة والمدنية، فارتقت الأمم والشعوب في شتى مناحي الحياة.

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي؛ والذي يعد من أكثر المناهج النقدية ملائمة للدراسات الأدبية؛ لكونه يصف ويحلل الظاهرة كما هي أي يصفها وصفًا موضوعيًا، فضلًا عن ذلك فهو ينسجم مع طبيعة الدراسة ويساعدها لتحقيق أهدافها، وكذلك لتحديد الرؤيا التي ارتكزت عليها الدراسة. كما استعانت الدراسة بالمنهج التاريخي لدراسة بعض الأحداث وتفسيرها وتحليلها على أسس علمية ومنهجية.

الدراسات السابقة:

حسب اطلاع الباحث في هذا المجال؛ وجدت أن الدراسات السابقة التي تناولت العصر الجاهلي لم تترك شاردة ولا واردة إلا واحصتها عدا، أما الحضارة الإسلامية فقد قتلت بحثًا، وتتطلع الدراسة في محاولة جادة لمعرفة الأثر الذي تركته إيجابيات ثقافة العصر الجاهلي في الحضارة الإسلامية. ومن الدراسات التي اطلعت عليها في هذا المضمار.

- عماد الهلالي، الثقافة بين المفهوم الغربيّ والإسلامي الإئتلاف والإختلاف. مجلة المنهاج، العدد67 (2012م).

- إبراهيم، محمد حمزة. الأديان في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام من خلال الشعر الجاهلي. مجلة الخليج العربي، المجلد40، العدد2 (2012م)، ص41.
- الشمري، ظاهر ذباح. لمحة عن الأحوال الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام. مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد4، العدد2 (2011م)، ص321.
- عشا، علي مصطفى. جدل العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي. مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، الجزء3، المجلد83 (2006م)، ص3.
- عبد الرازق بن إسماعيل هرماس. مسائل نافع بن الأزرق في ميزان النقد. حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية. العدد 16(1998م)، ص13.

هيكل الدراسة:

- المقدمة: تضم بين دفتيها إشكالية الدراسة، وأهدافها والمنهج النقدي الذي ينسجم مع طبيعة الدراسة ويلائمها، فضلا عما تحتاجه بعض المصطلحات من شرح يصب في صلب الموضوع، ثم الخطة التي سوف يتم تقسمها إلى مبحثين سبقتهما مقدمة.
- المبحث الأول: منظومة الحياة في العصر الجاهلي.
- المبحث الثاني: تناول بصمات ثقافة العصر الجاهلي في الحضارة الإسلامية.
- وخُتم بخاتمة توضح أهم النتائج التي توصلت لها الدراسة.ثم ثبت المصادر والمراجع.

المبحث الأول: منظومة ثقافة العصر الجاهلي

عكست ثقافة العصر الجاهلي منظومة الحياة الجاهلية، ومحاور حياتهم من عادات وتقاليد وأعراف وكيف شكلت محاور حياتهم الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية يومئذ.كما سيتناول سياسيتهم الداخلية والخارجية، وكيفية تفاعل القبائل فيما بينها، وكذلك علاقتها بالدول المجاورة والأمم الأخرى.

مفهوم الثقافة من المفاهيم التي أعيت من يداويها، لغة عرفها صاحب اللسان بقوله:" ثَقِفَ الشيءَ ثَقْفًا وثِقافًا وثُقُوفةً: حَذَقَه، ورجل ثَقْفٌ: حاذِقٌ فَهِم"[1] واصطلاحًا عرفها عبد النور في معجمه الأدبي:" للثقافة مفاهيم مختلفة بإختلاف الأزمنة والشعوب والطبقات التي يتألف منها المجتمع...، وهي تدل على مجموعة من المعارف والمهارات التقنية والذهنية وأنماط من التصرف والمخالفة التي تميز شعبا عن سواه من الشعوب"[2] كما عرّفها محمد عفيفي هي: "كل ما صنعه الإنسان فى بيئته خلال تاريخه الطويل فى مجتمع معيّن وتشمل اللغة، والعادات، والقيم، وآداب السلوك العام، والأدوات،

[1] ابن منظور، محمد بن مكرم (د. ت)، لسان العرب، بيروت: دار صادر. مادة ثقف.

[2] عبد النور، جبور (1979م)، المعجم الأدبي، لبنان: دار العلم للملايين، ص81.

والمعرفة، والمستويات الاجتماعيّة، والأنظمة الاجتماعيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة، والتعليميّة، والقضائيّة"[1].

هنالك عدة أسباب هيأت للعصر الجاهلي امتلاك أسباب الثقافة منها، التركيبة السكانية، من السكان من اتخذ من الحضر سكنًا ومستقرًا له، ومن أهم مميزات سكان الحضر التمدن والأخذ بأسباب الحضارة، وقسمهم ابن العبري في مختصره إلى طبقتين: "وأما سائر عرب الجاهلية بعد الملوك فكانوا طبقتين: أهل مدر وأهل وبر، فأما أهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى...، وأما أهل الوبر فهم قطان الصحارى..."[2].

كذلك من أسباب الثقافة في العصر الجاهلي، تعدد الديانات في شبه جزيرة العرب؛ إذ تعددت فيها الديانات ومنها اليهودية والنصرانية وهنالك أيضا بقايا من الحنفية شريعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ونتج ذلك من تواصلهم مع جيرانهم من الأمم المجاورة: "فقد تعرفوا على الديانة المجوسية والثقافة الفارسية عن طريق إمارة الحيرة العربية، الموالية للفرس والتابعة سياسيًا لهم"[3] كما: "تعرفوا على النصرانية والثقافة اليونانية والرومانية عن طريق الإمارات العربية في الشام، خاصة غسان"[4].

من مصادر ثقافة العصر الجاهلي الشرائع السماوية فهي من أهم آليات التقدم والرقي؛ وأينما هبطت حلَّت معها أسباب النهضة والرقي، وكان من أعظم مصادر ثقافة العصر الجاهلي الكعبة المشرفة، وهي مهوى قلوبهم ومحط أنظارهم؛ لأنهم كانوا على علم ودراية تامة بقدسيتها، وكانت الوفود تزورها تترى؛ حتى الملوك، ومنهم تبع الحميري الذي كساها وقدم ما ينبغي من فروض الولاء والطاعة تعظيمًا لها، أما الأحباش بقيادة قائدهم أبرهة أرادوا هدمها؛ حتى يستحوذوا على ما نالته قريش بسببها من شرف وسؤدد؛ فضلا عما تدره من أموال وأرباح من التجارة، خاصة أيام الموسم. فأثرى هذا التواصل أرض الحجاز بشتى العادات والتقاليد وتفاعلا سويا. الإحتكاك بالأمم الأخرى كانت مصدرًا من مصادر ثقافة العصر الجاهلي ـ وتم الإحتكاك بطرق عدة ـ وتعرفوا على ثقافاتهم حتى أصبحت من محاور حياتهم الاجتماعية ومفرداتهم الأدبية، وكثيرا ما استعار الشعراء مفردات من بيئات أخرى في شعرهم من ذلك قول الأعشى وهو يصف مجلس من مجالس اللهو والطرب وما فيه من آلات الموسيقى ذكرها كما وردت في اللغة الفارسية:

---

(1) عفيفي، محمد الهادي (د. ت)، في أصول التربية، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية، ص49.

(2) ابن العبري، أبو الفرج (د. ت)، مختصر الدول، لبنان: مطبعة بيروت، ص158-159.

(3) الكلبي، ابن السائب (1988م)، نسب معد واليمن الكبير، تحقيق ناجي حسن، بيروت: عالم الكتب. ج1، ص191.

(4) البكري، أبو عبيد (1992م)، المسالك والممالك، جزآن: دار الغرب الإسلامي، ص90.

لَنا جُلَّسانٌ عِندَها وَبَنَفسَجٌ وَسيسِنبَرٌ وَالمَرزَجوشُ مُنَمنَما
وَآسٌ وَخيرِيٌّ وَمَرمٌ وَسوسَنٌ إِذا كانَ هِنزَمنٌ وَرُحتُ مُخَشَّما
وَشاهَسفَرِم وَالياسَمينُ وَنَرجِسٌ يُصَبِّحُنا في كُلِّ دَجنٍ تَغَيَّما
وَمُستُقُ سينينٍ وَوَنٌّ وَبَربَطٌ يُجاوِبُهُ صَنجٌ إِذا ما تَرَنَّما[1]

نلاحظ كيف جرت هذه الألفاظ الفارسية على لسان الأعشى؛ مما يدل على مدى اطلاعه على عادات المجتمع الفارسي فضلًا عن تقاليده وثقافته. ويزخر ديوانه بعدد من المفردات الفارسية. كذلك كعب بن زهير عندما أراد مدح الرسول ﷺ في لاميته المشهورة بالبردة شبه النور الذي يشع من وجهه الشريف بلمعان السيف الهندي المصقول:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنورٌ يُسْتَضاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سيوفِ الهند مَسْلول[2]

بصمات الثقافة الجاهلية واضحة في شعر كعب، لأنه كان حديث عهد بالإسلام، والرسول ﷺ بحسه السليم طلب منه أن ينسب السيف إلى المولى عز وجل، لأن سيف الله لا يسل إلا بحقه وهو الجهاد في سبيل الله لرفع رآية الإسلام رفع كعب كلمة الهند وغير مفرداته إلى (مهند من سيوف الله) فسما المعنى وارتقى. ولم يكن تواصلهم مع الأمم الأخرى فقط عن طريق التجارة بل كانت هنالك صدامات عسكرية بينهم وبين الفرس وحرب ذي قار تشهد بتفوقهم العسكري على الفرس.

لقد عرف أهل مكة صناعة الأسرة والأرائك وورد ذكرها في القرآن الكريم ﴿عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[يس: 56] وقوله تعالى ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ﴾[الطور: 20] من مظاهر الثقافة في العصر الجاهلي الأسواق الأدبية؛ ومنها سوق عكاظ؛ الذي كان قبلة الشعراء والخطباء فضلا عما يحققه من منافع تجارية أيام الموسم، ووصف ابن خلدون إنشاد الشعر في سوق عكاظ بقوله: "وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر لتمييز أجوده...، حتى انتهوا إلى المناغاة"[3] وامتدت وظيفة هذه الأسواق الأدبية بعد البعثة إذ اتخذها منها الرسول ﷺ منابرًا للدعوة إلى الدين، وأدلت الأسواق الأدبية بدلوها مع الدلاء في الدعوة ونشر الدين وكان دلوها نعم الدلو.

---

(1) الأعشى، ميمون بن قيس (1994م)، ديوان الأعشى الكبير، لبنان: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ص293، جُلَّسانٌ وبَنَفسَجٌ وسيسِنبَرٌ لمَرزَجوشُ من أنواع الورد كذلك وَشاهَسفَرِم وَالياسَمينُ وَالنَرجِسٌ من أنواع الرياحين هِنزَمنٌ عيد من أعياد النصارى، الون من ألات الطرب وكذلك البربط، والصنح دوائر من النحاس تسخدم في الغناء.

(2) زهير، كعب (1997م)، ديوان كعب بن زهير، تحقيق على فاعور، لبنان: دار الكتب العلمية، ص67

(3) ابن خلدون، محمد بن عبد الرحمن، (د. ت) المقدمّة، بيروت: دار الجيل، ص803. عَكَظ دابَّتَه يَعْكِظُها عَكْظاً حبَسها، وتعَكَّظ القومُ تَعَكُّظاً إذا تَحَبَّسُوا لينظروا في أُمورهم، ومنه سميت عُكاظ. ابن منظور، لسان العرب، مادة عكظ. والمناغتة: أي المباراة في قول الشعر.

تأسيسًا على ما سبق، يمكن القول: كان للعصر الجاهلي ثقافة، لأنه متى ما تحقق وجود عناصر الثقافة ومحاورها ـ من أفكار وقيم وعادات وتقاليد وأعراف ونشاط بشري ومعتقدات وحرف ومهارات، ومعارف، وكل ما من شأنه أن يميز مجتمع من المجتمعات عن غيره ـ في مجتمع ما، فذلك يعني بالدليل القاطع أنه حدد ملامح ثقافته، وبالتالي يمكن معرفة الأنماط السلوكية المختلفة للفرد وأسلوبه في الحياة، وكذلك المجتمع الذي يعيش فيه. لم تكن الحياة في العصر الجاهلي حزمة من السلبيات؛ بل كانت هنالك ومضات مشرقة في حياتهم، ومن يتأمل قوله ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"[1] والرسول ﷺ هو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى يعلم تمام العلم أن هنالك بعض الفضائل والمكارم والسؤدد كانت تشكل منظومة الحياة في العصر الجاهلي، ومن خصه الله تعالى بالفضائل نال الشرف العظيم وعندما سئل ﷺ عن أكرم الناس قال:"...، أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ قالوا: ليسَ عن هذا نَسْأَلُكَ، قالَ: فأكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ قالوا: ليسَ عن هذا نَسْأَلُكَ، قالَ: فَعَنْ معادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ النَّاسُ معادِنُ، خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإسْلَامِ، إذَا فَقُهُوا "[2] والمقصود هنا الأصل الشريف والأصل الشريف لا يناله الإنسان إلا إذا تحلى بالفضائل ومكارم الأخلاق.

من محاور ثقافة العصر الجاهلي العادات والتقاليد والأعراف ـ وكانت بمثابة القوانين التي تنظم حياتهم؛ بل سيرت دولابها اليومي ـ ومنها الجانب المادي، والاخر معنوي وكان التفاعل أكثر وضوحًا في الجانب المعنوي مع الحضارة الإسلامية.

رفدت الرحلات التجارية ثقافة المجمع الجاهلي بالخبرات الحياتية، والمهارات المختلفة في شتى مناحي الحياة، لأن موقع جزيرة العرب المتوسط بين الشرق والغرب جعلها حلقة وصل وممرًا للقبائل فالتقت الشعوب من شتى أنحاء المعمورة؛ وهكذا أصبحت التجارة من أهم وسائل التواصل مع الأمم الأخرى؛ من روم وفرس فضلًا عن بلاد الشام والعراق والحبشة، ومنهم من اتخذ من أرض الحجاز مسكنًا مقابل دفع ضريبة لحماية أمواله وتجارته [3] ومن رحلاتهم التجارية المشهورة رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام، وخلدهما القرآن الكريم ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ...﴾[قريش: 1-2] كما امتدت رحلاتهم التجارية إلى بلاد الفرس؛ حيث استهوتهم اللطائم (الطيب أو العطور) الفارسية، ومنها المسك [4]وهو من العطور التي تجلب من بلاد فارس وذكرها امرؤ القيس في معلقته:

---

[1] الأدب المفرد. البخاري. حديث رقم 273.

[2] البخاري، كتاب المناقب. باب صفة النبي ﷺ حديث رقم 3383.

[3] على، جواد (1970م)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لبنان: دار العلم للملايين. ج4/ 113. 115.

[4] لفظ معرب (فارسية الأصل) كانت العرب تسميه المشموم، وهو طيب من دم الغزال (معجم المعاني مادة مسك)

وَتُضْحي فَتِيتُ المِسكِ فوق فراشها نؤومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تَفضُّلِ[1]

مما جاء في وصف المسك والإناء الذي يحفظ فيه قول الأعشى في فتاته:

إذا تَقُومُ يَضُوعُ الْمِسْكُ أُصْورَةً وَالزَّنْبَقُ الوَرْدُ مِنْ أَرْدَانِهَا شَمِلُ[2]

عرف عرب الجاهلية الحُقَّة من ملوك حمير؛ وهي إناء تحفظ فيه المرأة طيبها وعطورها، ونسبها إليهم امرؤ القيس في قوله:

وريحُ سَنًا في حُقَّةٍ حميرية تُخَصّ بمَفرُوكٍ منَ المِسكِ أذْفَرَا[3]

ورد ذكر المسك في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[4] كذلك ورد المسك في قوله: ﷺ مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والجَلِيسِ السَّوْءِ، كَمَثَلِ صاحِبِ المِسْكِ وكِيرِ الحَدَّادِ؛ لا يَعْدَمُكَ مِن صاحِبِ المِسْكِ إمَّا تَشْتَرِيهِ أوْ تَجِدُ رِيحَهُ...، " [5] مفردات العطور والزينة وأدواتها التي وظفت في الثقافة الجاهلية يضيق المجال ولا يتسع لذكرها، وما أشرت إليه ما هو إلا غيض من فيض.

نماذج التبادل الثقافي في العصر الجاهلي مع الثقافات الأخرى كثيرة ومتعدد ومتابينة، وامتدت وشملت تفاصيل حياتهم اليومية، منها لفظة الإبريق ووقفوا عند الإبريق وعرفوا كيفية استخدامه وفائدته ـ من أواني الشرب تشبه الكوز ـ وهي كلمة فارسية معربة، وذكرها عدي بن زيد في لاميته حيث يقول:

والأَباريقُ عَلَيها فُدُمٌ وعِتَاقُ الخيلِ تَردي في الجِلال[6]

من ثمار تلاقح الثقافات اللوحات الفنية التي جادت بها قرائح الشعراء، وما حوته من صور شعرية غاية في الجمال؛ سمت بتجربتهم الشعرية، وهكذا تلاقح الأدب في العصر الجاهلي مع الحراك الأدبي عند شتى الأمم والشعوب. أما السيوف الهندية التي اشتهرت بجودتها وبريقها ولمعانها، كانت

---

[1] القيس، امرؤ القيس (د.ت)، ديوان امرئ القيس، لبنان: دار صادر، ص59.

[2] ديوان الأعشى، ص55.

[3] ديوان امرئ القيس، ص59.

[4] ابن كثير، اسماعيل بن عمر (1999م)، تفسير ابن كثير. تحقيق سامي بن محمد السلامة، الرياض: دار طيبة. تفسير سورة المطففين آية / 26. قال ابن مسعود:(ختامه مسك) أي خلطه مسك. وقال ابن عباس: طيب الله لهم الخمر فكان آخر شيء جعل فيها مسك ختم بمسك (تفسير ابن كثير سورة المطففين)

[5] صحيح البخاري، كتاب البيوع باب في العطار وبيع المسك، حديث رقم 2101.

[6] ابن زيد، عدي (1965م)، ديوان عدي بن زيد، تحقيق محمد جبار المعيبد. بغداد: دار الجمهورية للنشر والطبع. ص 82. من معاني الفدم ما يوضع على الفم سِدَادًا له.

من أحدى الأسباب التي جعلتهم يسافرون إلى بلاد الهند، وكانوا يسمون السيف هنديًا ومهندًا وهنداوانيًا، فضلًا عن التوابل والعطور والبخور لقد نالت بعض المنتجات الهندية شهرة وحظوة في الديار العربية. وكانوا قوم يعشقون السفر والحل والترحال؛ لذا وجدوا ضالتهم في التجارة، وما تتيحهم لهم من حرية السفر والتنقل، فاتخذوها وسيلة لكسب العيش، فضلًا عن الصيد والرعي، وكانت الزراعة آخر الخيارات؛ لأنهم يكرهون الاستقرار في مكان واحد. وهكذا كانت حياتهم بين حل وترحال، وهيأت –هذه الرحلات التي تمت في العصر الجاهلي– الذين شرح الله تعالى صدورهم للإسلام أن يخرجوا من جزيرتهم إلى الأمصار المختلفة فاتحين وناشرين للدين الإسلامي. مما يقطع الشك بالقين أن المجتمع الجاهلي لم يكن متقوقعا أو منغلقا على نفسه، وحلهم وترحالهم كان من بين أسباب رقيهم ونهضتهم، وهكذا هيأ الله تعالى هذا المجتمع ليستقبل آخر رسالاته للعالمين.

تتجلى ثقافة المجتمعات من خلال الحراك الأدبي، ومما يدل على وعي المجتمع الجاهلي حرصه على الكلمة الموزنة المقفاة لأن:" الشعر لم يكن في توثيقه للأحداث وقفًا على السياسية منها، بل ظلت مضامينه الحية صورة للواقع الاجتماعي والثقافي والفكري" [1] وكان الشعر ديوانهم الذي سجلوا فيه كل تفاصيل حياتهم، حتى رحلاتهم إلى خارج جزيرة العرب لأي غرض من الأغراض؛ ولخصت هذه الرحلات ما تم من تبادل ثقافي مع الأمم الأخرى، ومن ذلك رحلة الأعشى إلى بانقيا وعدن؛ التي صرح بها في رائيته حيث يقول:

قَد طُفتُ ما بَينَ بانِقيا إِلى عَدَنٍ وَطالَ في العُجمِ تِرحالي وَتَسياري[2]

ثم رحلاته إلى عدد من الأمصار التي زارها يتكسب بشعره ومنها عمان وحمص وأوريشلم وبلاد الحبشة وأرض النبيط (العراق) وأرض العجم ونجران وأرض حمير وحضرموت:

وَقَد طُفتُ لِلمالِ آفاقَهُ عُمانَ فَحِمصَ فَأوريشَلِم
أَتَيتُ النَجاشِيَّ في أَرضِهِ وَأَرضَ النَبيطِ وَأَرضَ العَجَم
فَنَجرانَ فَالسَروَ مِن حِميَر فَأَيَّ مَرامٍ لَهُ لَم أَرُم
وَمِن بَعدِ ذاكَ إِلى حَضرَمَوتَ فَأَوفَيتُ هَمّي وَحيناً أَهُم[3]

كان هم الأعشى التكسب بشعره لجمع المال؛ أي كان همه الجانب المادي فقط؛ لكن من حيث لا يدري فقد جمع ما هو أهم وأفضل من المال؛ فقد حقق ماكان نفعه أعم بل امتد أثره إلى يومنا هذا؛ من خلال ما تركه من إرث أدبي، وخلدت قوافيه التاريخ والثقافة؛ لأنه اطلع على ثقافات

[1] القيسي، نوري حمودي (1980م)، الشعر والتاريخ، العراق: دار الحرية للطباعة، ص190.
[2] ديوان الأعشى، ص179. بانِقيا ناحية من نواحي الكوفة (الحموي، ياقوت (د.ت) معجم البلدان، لبنان: دار الفكر. ج1/ 331.)
[3] المصدر السابق، ص233.

مختلفة وحضارات متباينة، وعلى مستواه الشخصي رفعت عن كاهله طابع البداوة، لأنه جالس الملوك وحاورهم وعرف أخبارهم، وكان من نتيجة هذه الأسفار والرحلات؛ الانفتاح على ألوان مختلفة من الحضارات، واحتك بأنماط مختلفة من الناس منهم العامة ومنهم الخاصة، فضلًا عن السادة والأشراف من الأمم المختلفة، فتواصل مع الفارسي والرومي والنبطي والحبشي والهندي وغيرهم من الأجناس؛ وفجر هذا الانفتاح . على الثقافات المختلفة . الطاقات الإبداعية الكامنة فيه، وخاصة في شاعر فحل مثله أتى من بيئة بدوية قحة، واطلع على حضارات متباينة، قد بلغت شأوا عظيمًا في زمانها. حتى مفرداته قد تأثرت ببعض مفردات الأمم التي تواصل معها؛ وكان للثقافة الفارسية النصيب الأوفى في شعره أكثر من الرومية؛ لأن احتكاكه بالروم كان أقل من احتكاكه بالفرس، ومن المفردات الفارسية التي وردت في شعره قوله:

فَما أَنتَ إِن دامَت عَلَيكَ بِخالِدٍ كَما لَم يُخَلَّد قَبلُ ساسا وَمورَقُ
وَكِسرى شَهِنشاهُ الَّذي سارَ مُلكُهُ لَهُ ما اِشتَهى راحٌ عَتيقٌ وَزَنبَقُ[1]

حتى في غزله كان يتغزل بنساء غير عربيات؛ أكثرهن فارسيات وبعضهن روميات وورد ذكر هريرة وقتيلة وجبيرة وبعضهن من القيان، وبين ثنايا غزله زينتهن التي هي من صميم بيئاتهن المختلفة، وأكثر ما استهواه زينة المرأة الفارسية، ومن غزله:

ترى الخزَّ تلبَسُهُ ظاهراً وتُبطِنُ من دون ذاك الحريرا
إذا قلَّدتْ مِعْصماً يارقيْ نِ فُصِّل بالدُّرِّ فصْلاً نضيرا
وجلَّ زبرجدَةٌ فوْقَـهُ وياقوتةٌ خِلْتَ شيئاً نكيرا[2]

أما رحلات حسان بن ثابت كانت إلى الغساسنة:" فهو أكثر الشعراء الذين ذكروا الغساسنة في أشعارهم. وكثيرًا ما تغنى في شعره بحضارة ورقي وانتصارات الغساسنة. لذا يعد شعره من الوثائق الاجتماعية والتاريخية لمعرفة حياة الغساسنة. ومن يدرس شعره يستطيع أن يتعرف على احتفالاتهم الدينية ومجالس لهوهم وطربهم وعاداتهم في مأكلهم وملبسهم؛ حتى ما حققوه من انتصارات في ميادين القتال وخططهم الحربية؛ ولقد اعتمد بعض الباحثين في كثير من الأحيان على شعر حسان بن ثابت، لصياغة صورًا تاريخية أكثر وضوحًا عن حضارة الغساسنة، ومن أشهر لوحات حسان الفنية التي أنشدها في الغساسنة لاميته التي يقول فيها:

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق في الزمان الأول

[1] المصدر السابق، ص217. (شهنشاه كلمة فارسية معناها ملك الملوك. مورق: ملك الروم. ساسان: ملك الفرس).
[2] المصدر السابق، ص95.

بِيضُ الوُجُوهِ، كريمَة أحسابُهُمْ شُمُّ الأنوفِ، من الطِّرَازِ الأوّلِ[1]

كان النابغة الذبياني من ندماء ملك الحيرة النعمان بن المنذر، لكن داء الحسد والغيرة جعلا بطانة الملك يسعون بينه وبين الملك بالخراب، وحسدوه على المكانة الرفيعة التي حظي بها عند الملك؛ ودسوا له عند الملك الذي عزم على قتله، عندئذ هرب النابغة ولجأ إلى الغساسنة؛ لكنه ما فتأ يحن للملك النعمان، ويرسل له القصائد تترى يمدحه ويستعطفه؛ حتى رضي عنه وأدناه منه مرة أخرى:

عَلَيَّ لِعَمروٍ نِعمَةٌ بَعدَ نِعمَةٍ لِوالِدِهِ لَيسَت بِذاتِ عَقارِبِ
حَلَفتُ يَمينًا غَيرَ ذي مَثنَوِيَّةٍ وَلا عِلمَ إِلّا حُسنُ ظَنٍّ بِصاحِبِ
لَئِن كانَ لِلقَبرَينِ قَبرٍ بِجِلَّقٍ وَقَبرٍ بِصَيداءَ الَّذي عِندَ حارِبِ[2]

تركت هذه الجفوة أو القطيعة ـ التي وقعت بين ملك الحيرة النعمان بن المنذر وبين الشاعر الجاهلي نابغة بني ذبيان ـ بصمة واضحة في تاريخ الأدب العربي؛ إذ سجل النابغة الذبياني ميلاد غرض جديد من أغراض الشعر العربي؛ وهو فن الإعتذار ومن اعتذارياته للملك النعمان الذي كناه بأبي قابوس:

وَعيدُ أَبي قابوسَ في غَيرِ كُنهِهِ أَتاني وَدوني راكِسٌ فَالضَواجِعُ
أَتاني أَبَيتَ اللَعنَ أَنَّكَ لُمتَني وَتِلكَ الَّتي تَستَكُّ مِنها المَسامِعُ
مَقالَةُ أَن قَد قُلتَ سَوفَ أَنالُهُ وَذَلِكَ مِن تِلقاءِ مِثلِكَ رائِعُ[3]

لجأ النابغة إلى الغساسنة في فترة خصامه مع النعمان ملك الحيرة، مادحًا لهم متكسبًا بشعره؛ فأحسنوا وفادته وعندما اتصل بالمناذرة ومدحهم كذلك، ومن الشعراء الذين قصدو قصور المناذرة والغساسنة الحارث اليشكري، وأوس بن حجر ولبيد بن ربيعة، والمثقب العبدي وغيرهم كثر؛ بينما ذهب امرؤ القيس إلى ملك الروم يطلب مساعدته للثأر من قتلة والده، واستعادة ملكه الضائع وأرخ لذلك بقوله:

بَكى صاحِبي لَمّا رَأى الدَربَ دونَهُ وَأَيقَنَ أَنّا لاحِقانِ بِقَيصَرا[4]

---

[1] ابن ثابت، حسان (1994م)، ديوان حسان بن ثابت، لبنان: دار الكتب العلمية، ص184. جلق: هي دمشق. وابن مارية هو الحارث بن الأعرج. وشم الأنوف كناية عن الرفعة وعلو المكانة.

[2] النابغة، زياد بن معاوية (1996م)، ديوان النابغة الذبياني، لبنان: دار الكتب العلمية، ص29.

[3] المصدر السابق، ص54.

[4] ديوان امرئ القيس، ص65 ـ 66.

لقد تركت رحلات هؤلاء الشعراء ـ وغيرهم إلى خارج أرض الحجاز ـ أثرًا طيبًا في منظومة ثقافة العصر الجاهلي؛ لأنهم تعرفوا على ثقافات جديدة وحضارات كانت قد بلغت شأوا عظيمًا يومئذ، وأثمرت هذه الرحلات في تجربتهم الشعرية وفي فكرهم وثقافتهم.

مما سبق يتضح أن تواصل عرب الحجاز مع جيرانهم بعدة طرق منها التجارية والدينية والسياسية وأثمر هذا التواصل في الحراك الفكري والأدبي الثقافي، وكان له أثر واضح في تطور المجتمع وتقدمه.

من مظاهر ثقافة العصر الجاهلي معرفة بعضهم للكتابة وأدواتها؛ ومن ذلك قول المرقش الأكبر، في وصف أطلال محبوبته وكان له علم ومعرفة بالكتابة والرقش:

الدَّارُ قَفْرٌ والرُّسُومُ كَما رَقَّشَ في ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ[1]

أكبر دليل على معرفة عرب الجاهلية للكتابة ما ورد في القرآن الكريم؛ وما تحداهم الله تعالى باللغة وهي من أكبر مفاخرهم كذلك خاطبهم بالأشياء التي يعرفونها؛ لقد أقسم الله تعالى بالكتابة، وبأدواتها في مواضع كثيرة ومن الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم (رق منشور، القراطيس، نون، القلم وكذلك كلمة وما يسطرون وغيرها من المفردات الدالة على ذلك) وآية الدين [البقرة: 282] تشهد لهم بمعرفتهم للكتابة، وكذلك كتاب الوحي الذين انتدبهم الرسول ﷺ لكتابة الوحي. عن معرفة العرب للكتابة قال صاحب العقد الفريد:"حكوا أن ثلاثة من طيء اجتمعوا ببقعة، وهم: مرار بن مرة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه قوم من الأنبار، وجاء الإسلام وليس أحد يكتب العربية غير بضعة عشر إنسانًا "[2] وكان بعض الشعراء يعرفون الكتابة ومنهم من كان يكتب على قتب رحله كما فعل الزير سالم:

من مبلغ الحيين أن مهلهلا أضحى قتيلاً في الفلآة مجندلا
لله دركـــما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا[3]

على الرغم من الأمية التي تفشت بينهم وجهلهم للقراءة والكتابة ـ إلا فئة قليلة جدًا منهم ـ لكن عدم معرفتهم للقراءة والكتابة لم يمنعهم من اكتساب الوعي والثقافة؛ إذ لا تعارض بين الأمية والثقافة؛ لأن الوعي هبة ربانية ينير الله تعالى بها العقول والقلوب، لذا قذف الله تعالى فيهم هذا الوعي؛ حتى ليهيأهم لاستقبال آخر رسالاته التي جعل من بين معجزاتها المعجزة العقلية ـ القرآن الكريم ـ لأنها

[1] ابن سعد، عمرو (1998م)، ديوان المرقشين، تحقيق كارين صادر، بيروت: دار صادر، ص67. من معاني الرقش الخط الحسن. ورقش الكتاب: أي كتبه ونقطه.
[2] ابن عبد ربه، أحمد (1946 م)، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر. ج240/4.
[3] ابن ربيعة، مهلهل (د. ت)، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح طلال بن حرب، لبنان: الدار العلمية، ص18.

أكثر خلودًا وبقاءا من المعجزة المادية. ومن مظاهر وعيهم وثقافتهم تراثهم الأدبي؛ الذي نقله الرواة عن طريق المشافهة وسجلوا فيها عاداتهم وتقاليدهم وكل تفاصيل حياتهم اليومية.

خلاصة القول وصفوته: كان لمنظومة ثقافة العصر الجاهلي ـ التي ضمت بين دفتيها عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم وتفاصيل حياتهم ـ حضورًا متميزًا وتفاعلت مع الثقافات الأخرى، وأثرت فيها وتأثرت بها، وامتدت محاورها الإيجابية وعناصرها الطيبة إلى العصر التالي لها؛ وهو عصر صدر الإسلام، وسيطرح المبحث الثاني بصمات ثقافة العصر الجاهلي في الحضارة الإسلامية؛ ليناقش ما استحسنه القرآن الكريم وما استهجنه ورفضه وحرمه، وبالتالي تكون ثقافة المجتمع الجاهلي الإيجابية تركت لمسة أو طبعت بصمة في جبين الحضارة الإسلامية.

المبحث الثاني: بصمات ثقافة العصر الجاهلي في الحضارة الإسلامية

سيناقش هذا المبحث الآثار الإيجابية لبعض العادات والتقاليد والأعراف؛ التي كانت سائدة في العصر الجاهلي، وكيف نقحها الإسلام من آثار الشرك وهذبها؛ حتى تتناسب مع سماحة الدين الجديد. وكذلك الأثر الطيب الذي تركته في مسيرة الحضارة الإسلامية.

من منظومة ثقافتهم المعنوية حياتهم الفكرية والأدبية؛ التي تفاعلت مع الحضارة الإسلامية وطبعت بصمتها بوضوح فيها. ولعله من نافلة القول الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم لعرب الجاهلية؛ لكن الفضل لله تعالى من قبل ومن بعد، فقد قذف في قلوبهم حب لغة الضاد، وجعلها من أهم مفاخرهم، ثم كانت المعجزة الإلهية أن يتحداهم ن جنس الشئ الذي يفخرون به، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام: 124] وتحلت قدرة الله تعالى وعظمته في إعجازهم؛ لأن القرآن الكريم أدهشهم بفصاحته وبلاغته وأسلوبه، وألفاظه بل تحداهم أن يأتوا بمثله قال تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة: 23] واعترفوا بعجزهم ومنهم الوليد بن المغيرة ـ وهو من السادة والأشراف ـ الذي انطقه الله بالحق؛ عندما سمع قول الله تعالى ﴿حَم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ * مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوح والأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وهَمَّتْ كُلُّ أُمَّة بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[غافر: 1-6]. فلما سمع ذلك قام حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: "والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمُثمِر، وإنّ أسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وإنّه لَيْعلو وما يُعْلى عليه."[1]

[1] القرطبي، حمد بن أحمد (د. ت)، الجامع لأحكام القرآن، لبنان: بيروت عالم الكتب، ص575.

من عاداتهم السمحة التحلي بالفضائل والمكارم، ومنها الكرم؛ وأجواد العرب ثلاثة: " كعب بن مامة الأيادي وحاتم طئ وهرم بن سنان "[1] وضُرب بحاتم الطائي المثل في الكرم " وقيل أكرم من حاتم " [2] الذي كان يكرم غلامه ويعتقه؛ إذا أتاه بضيف وخاطبه قائلا:

أوْقِدْ، فإنَّ اللّيْلَ لَيْلٌ قُر والرّيحَ، يا مُوقِدُ، رِيحٌ صِرُّ
عَسَى يَرَى نَارَكَ مَنْ يَمرُّ إنْ جَلَبَتْ ضَيْفًا فَأنْتَ حُرُّ[3]

لم يرفض الدين الإسلامي ما استأصل في عرب بالجاهلية سؤدد وفضائل ومنها الكرم؛ حتى أصبح من أهم مفاخرهم، بل استوعبتها التعاليم الإسلامية، وأمنت عليها، قال تعالى﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 261] وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم...، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: 274].

وحث الإسلام على التسمك بقيم الكرم، وصارت من مفردات الدين، ومحاور الحضارة الإسلامية، . التي تهدف إلى إسعاد البشرية ورفاهيتها . وكان الفخر والتباهي من أهم أساب أهداف البذل والعطاء في الجاهلية؛ لكن في الإسلام اختلف التوجه وأصبح ساميًا ونبيلًا؛ أي لابد من اخلاص النية لله تعالى ﴿إِنَّمَا نُطعِمُكُم لِوَجهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُم جَزَاءً ولا شُكُوراً﴾[الإنسان: 9].

من العادات الجاهلية التي أمن عليها الإسلام وأصبحت من منظومة التعاليم الإسلامية ومن مفردات الحضارة الإسلامية، حقوق الجار وحرمته وهي سبب من اسباب الاستقرار التي تقود إلى بناء مجتمع آمن ينعم بالسعادة، ولخص عنترة هذا الخُلق الكريم في قوله:

وأَغُضُّ طَرْفي مَا بَدَتْ لي جَارَتي حَتَّى يُوارِي جَارَتي مَأْواها

مراعاة حقوق الجار وغض البصر عن محارمه لم يكن طبع في عنترة فقط؛ بل كان خُلق كريم تتحلى به النفوس التي فطرت على الفطرة السوية، وصرح زعيم الصعاليك عروة بن الورد بنهجه في الحياة وفلسفته في معاملة الجار بقوله:

وإنْ جارتي ألوَتْ رياحٌ ببيتها تغافلت حتى يستر البيت جانبـه[4]
ولا يُستضامُ، الدهرَ، جاري ولا أُرى كمن باتَ تسري للصّديق عقاربُه

[1] الزركلي، خير الدين محمود (2002م)، الأعلام قاموس تراجم، لبنان: دار العلم للملابين.ج5/ 229.
[2] النيسابوري، الفضل الميداني (د.ت)، مجمع الأمثال، ج1/ 182.
[3] الطائي، حاتم (1981م)، ديوان حاتم الطائي، لبنان: دار صادر، ص5.
[4] ابن الورد، عروة (1989م)، ديوان عروة بن الورد، لبنان: دار الكتب العلمية، ص48.

أوصى الله تعالى بالجار[النساء: 36] وفسر أهل العلم للجار ثلاثة حقوق منها حق الإسلام وحق الجوار وحق القرابة، إذا كانت بينهما صلة رحم وقال ﷺ:" مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"[1].

من القيم الفاضلة التي أفسح لها عرب الجاهلية مساحة طيبة في حياتهم وفي تعاملاتهم المالية وعلاقاتهم الاجتماعية على مختلف الأصعدة قيم الوفاء بالعهود والمواثيق؛ بل كانوا يعظمونها، ويذمون من اتصف بضدها وهي صفة الغدر ويعيرونه من وجاء في أمثالهم "أَوْفَى مَنَ السَّمَوْأَلِ"[2]، وخلد الأعشى في رائيته قصة وفاء السموأل لامرئ القيس، حيث يقول:

أوصى الله تعالى بالجار[3] وفسر أهل العلم للجار ثلاثة حقوق منها حق الإسلام وحق الجوار وحق القرابة، إذا كانت بينهما صلة رحم وقال ﷺ: "مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ"[4].

من القيم الفاضلة التي أفسح لها عرب الجاهلية مساحة طيبة في حياتهم وفي تعاملاتهم المالية وعلاقاتهم الاجتماعية على مختلف الأصعدة قيم الوفاء بالعهود والمواثيق؛ بل كانوا يعظمونها، ويذمون من اتصف بضدها وهي صفة الغدر ويعيرونه من وجاء في أمثالهم "أَوْفَى مَنَ السَّمَوْأَلِ"[5]، وخلد الأعشى في رائيته قصة وفاء السموأل لامرئ القيس، حيث يقول:

كُنْ كَالسَّمَوْءَلِ إِذْ طَافَ الْهُمَامُ بِهِ ... فِي جَحْفَلٍ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّار
فَقَالَ ثُكلٌ وَغَدرٌ أَنتَ بَينَهُما ... فَاِختَر وَما فيهِما حَظٌّ لِمُختارِ
أَأَقتُلُ اِبنَكَ صَبراً أَو تَجيءُ بِها ... طَوعاً فَأَنكَرَ هَذا أَيَّ إِنكارِ
وَقالَ لا أَشتَري عاراً بِمَكرُمَةٍ ... فَاِختارَ مَكرُمَةَ الدُنيا عَلى العارِ[6]

لقد حث تعالى على هذه القيم الفاضلة﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾[النحل: 91] وقوله كذلك ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾[7] ولأهمية الوفاء بالعهد وآداء الأمانات أوصى الرسول ﷺ الأمة في خطبة حجة الوداع بها:"...، فمن كانت عنده أمانة، فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها"[الإسراء: 34].

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الأدب باب الوصاة بالجار، حديث رقم 5669

[2] الميداني، أبو الفضل (د. ت)، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين، بيروت: دار المعرفة. ج374/2.

[3] سورة النساء آية / 36.

[4] صحيح البخاري، كتاب الأدب باب الوصاة بالجار، حديث رقم 5669

[5] الميداني، أبو الفضل (د. ت)، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين، بيروت: دار المعرفة. ج374/2.

[6] ديوان الأعشى، ص179.

[7] صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، حديث رقم.4134

من أهم ملامح ثقافة العصر الجاهلي الحياة الأدبية؛ لذا كانت الكلمة الموزونة المقفاة من بين الأسلحة الفتاكة التي استخدمها كفار قريش في حربهم ضد الدين الجديد، وسخروا ملكاتهم الفنية والأدبية للنيل من حضرة المصطفى ﷺ وتبارى شعراء الكفر في ذلك، وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ووظفوا قوافيهم في حربهم ضد الإسلام والمسلمين، لكن خاب سعيهم؛ قال تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُاْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[التوبة: 32] وسأل المصطفى ﷺ:" مامنع القوم الذين نصروا الإسلام بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم"[1] فإنبرت ثلة طيبة للدفاع عن محارم الله تعالى والذب عن الرسول ﷺ، وكان راية هذه الحرب الباردة ويتقدم الصفوف شاعر النبوة حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم كُثر. وكان هؤلاء الشعراء من فحول شعراء الجاهلية، ولهم باع طويل في قرض الشعر، وملكات فنية أهلتهم؛ ليكونوا في الصدراة بين شعراء قومهم، وعندما شرح الله تعالى صدورهم للإسلام سخروا ملكاتهم الأدبية، ووظفوا مواهبهم ومهاراتهم لخدمة الإسلام، وجندوا ألسنتهم للذب عن محارم الله تعالى ولنصرته ﷺ. وسجل القرآن الكريم موقفهم المشرف من الدعوة الإسلامية، وأثنى عليهم، ومدحهم في أعظم كتاب ووصفهم بأربع صفات في قوله تعالى ﴿...إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[الشعراء: 227] وسلَّ حسان لسانه الذي وصفه بقوله (لساني صارم لا عيب فيه) ورد كيد المعتدين، وأفحم أبا سفيان ـ قبل إسلامه ـ عندما حاول النيل من حضرة المصطفى ﷺ:

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ، وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُما لِخَيْرِكُمَا الفِداءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وقاءُ[2]

أما تلك الشِّرْذِمَةُ التي حاولت النيل من الدين الجديد، فقد أضل الله سعيهم وذمهم الله تعالى بقوله ﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء: 224-226].

هكذا نلاحظ كيف وظف الشعراء ـ الذين شرح الله تعالى صدروهم للإسلام ـ ملكاتهم الفنية وقدراتهم الأدبية والفكرية؛ التي كانوا يتمتعون بها في الجاهلية لخدمة الدين الجديد، بل وأصبحت من أهم الآليات التي ناضلت ضد الكفر؛ حتى الأغراض الشعرية التي سبق لهم أن تناولوها في فترة جاهليتهم كانت هي الأغراض نفسها التي نهضت بالشعر بعد نزول الوحي؛ لكن مع اختلاف التناول وكيفية العرض والطرح؛ فظهرت سماحة الإسلام وتعاليمه السامية في منظومهم وكذلك في فن النثر،

[1] أبو الفرج، علي بن الحسين (1950م)، كتاب الأغاني، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية. ج4/ 137.
[2] ديوان حسان، ص19 ـ20.

لأن الإسلام سما بحسهم الأدبي وذوقهم الفني. عندما خاطب القرآن عرب الجاهلية خاطبهم من جنس الأشياء التي كانوا يعرفونها؛ لذا لم تكن المفردات غريبة بالنسبة لهم، وما استعصى عليهم فهمه من القرآن الكريم أشار إليهم ابن عباس بالرجوع إلى ديوان العرب في قوله:" إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب. وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرًا." [1] ومسائل نافع ابن الأزرق ـ التي بلغت حوالى مائة وتسع وثمانون مسألة ـ أشار إليها الحافظ نور الدين الهيثمي: في باب كيف يفسر القرآن " [2] وهذه المسائل التي طرحها نافع بن الأزرق على ابن عباس أكبر شاهد ودليل على ما أشار إليه ابن عباس؛ لأنه أجابه عن كل استفسار بنص شعري، واقتطف منها:" أخبِرْني عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ﴾[3]، ما الشواظ؟ أجابه ابن عباس: اللهب الذي لا دخان فيه، فسأله ابن الأزرق: وهل كانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل الكتابُ على محمَّدٍ ﷺ ؟ قال: نعم، أمَا سمعتَ قول أُمَيَّة بن أبي الصلت:

ألا من مبلغٌ حسَّان عنِّي ... مغلغَلةً تَدِبُّ إلى عُكَاظِ
أليس أبوك قَيْنًا كان فينا ... إلى القَيْنات فسلًا في الحِفاظ
يمانيًّا يظلُّ يشُبُّ كِيرًا ... وينفخ دائبًا لهبَ الشواظ[4]

هكذا يتضح لنا الأثر الطيب الذي تركه الأدب في العصر الجاهلي في فهم القرآن الكريم؛ مما يدل على مدى تمكنهم من نواصي البلاغة والبيان؛ وعلى الرغم من فصاحتهم وبلاغتهم التي كانت من أهم مفاخرهم، لكن أدهشهم القرآن الكريم بألفاظه، وأسلوبه ومعانيه، وما حواه من علوم ومعارف، وكان كذلك حالهم مع الحديث النبوي الشريف الذي وصفه الجاحظ بقوله:" هو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف. استعمل المبسوط في موضع البسط؛ والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقي؛ فلم ينطق عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة، وشُدَّ بالتأييد، يُسِّر بالتوفيق، وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول، وجمع بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبدُّ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين

[1] ابن رشيق، أبو الحسن (1981م)، كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه، بيروت: دار الجيل، ص30.
[2] الهيثمي، علي بن أبي بكر (2001م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت: دار الكتاب العربي. ج6/ 303.
[3] سورة الرحمن آية / 35.
[4] الصلت، أمية (1934م)، ديوان أمية بن أبي الصلت، بيروت: المكتبة الأهلية، ص39. (ورواية الديوان يظل يشب كيرا بعد كير...،)

بالخلابة، ولا يستعمل المؤاربة، ولا يَهمز ولا يَلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر؛ ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ولا أصدق لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ"[1] ورفدت السنة النبوية اللغة العربية بمفردات لم يسمعوا بها من قبل، مثل قوله:مات حتف أنفه وقوله يا خيل وكان يخاطب كل وفد يفد عليه بلغتهم كما كان الحال مع وفد حمير عندما خاطبهم بلغتهم:" لَيْسَ مِنْ امْبِرِّ امْصِيَامُ فِي امْسَفَر " [2] وكان ﷺ يشجع الشعراء ويكافئهم ويجزيهم ومن ذلك قوله لحسان بن ثابت:" اهْجُهم وجِبْرِيلُ معَكَ" [3] وهكذا جندت هذه الثلة الطيبة من الشعراء قوافيهم؛ لنصرة الدين الجديد.

مما سبق نستنتج أن الأدب في العصر الجاهلي أدلي بدلوه في تفسير ما قد يستعصي عليهم فهمه من القرآن الكريم. كانت الفصاحة والبلاغة من أعظم المفاخرفي الجاهلية، وبلغ الأدب عصرئذ شأوا عظيمًا وعندما أشرقت شمس الإسلام سما الأدب تحت رآية الأسلام وارتقى، واسُتثمر ووُظف للذب عن محارم الله ونصرة نبيه ﷺ، وهكذا تركت الكلمة الموزنة والمنثورة لمسة فنية في مسيرة الدعوة المحمدية وكذلك في تاريخ الحضارة الإسلامية، وكان لتلك الثلة الطيبة من الشعراء المخضرمين الذين منَّ الله تعالى عليهم بنعمة الإسلام أثر في توجه الدعوة المحمدية؛ لأنهم وظفوا قوافيهم واستثمروا مواهبهم وملكاتهم الفنية للذود عن محارم الله تعالى ونصرة الرسول ﷺ، وكذلك كان حال الخطباء وديدنهم.

في مضمار الحياة الدينية شرف الله تعالى أرض الحجاز؛ لتكون موضعًا لبيته الحرام، وكان أهل الجاهلية يعرفون حرمة البيت ويقدسونه ويعظمونه ويحجون إليه، مع اختلاف كبير في أداء الشعائر التي تم تحريفها من شريعة إبراهيم . عليه السلام . وكانوا يؤدون المناسك ويسوقون إليه الهدي، وكان يحلفون به، ويكسونه وكانت قريش تترافد في كسوته في عام، بينما يكسوه الوليد بن المغيره في العام التالي بمفرده؛ لذلك سمي بالعدل، ونزل فيه قوله تعالى﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾[المدثر: 11-16] وبعد البعثة زاد الله تعالى أرض الحجاز شرفا ومنعة فأصحبت الكعبة قبلة أنظار المسلمين ومصدر عزهم ومنعنهم، يحجون إليها من كل فج عميق.

---

[1] الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (1998م)، البيان والتبيين، مصر: مكتبة الخانجي. ج2/ 17.

[2] قلب لام التعريف ميمًا لغة الأشاعرة (ينظر ابن حجر، كتاب التخبص الحبير. ج2/ 205)

[3] مسلم، أبو الحسن النيسابوري (2006م)، صحيح مسلم، تحقيق نظر بن محمد، السعودية: دار طيبة. كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسان بن ثابت، حديث رقم 4668.

كانت الوفادة من عادات العرب، وفيها تتجلي معالم السياسة الداخلية والخارجية للقبيلة؛ فإذا كان الوفد من خارج أرض الحجاز فذلك يعنى أن الشأن خارجي؛ أما إذا كان الوفد من داخل أرض الحجاز فالأمر عندئذ يتعلق بالشؤون الداخلية. وبعد مبعثه الكريم ﷺ لم تنقطع هذه العادة؛ بل اتخذها الرسول ﷺ آلية من آليات الدعوة إلى الدين الجديد، ووظفها خير توظيف وتجلت فعاليتها في السنة التاسعة من الهجرة الشريفة؛ الذي سمي بعام الوفود؛ حيث وفدت الوفود تترى لتعلن إسلامها؛ حتى وفود الجن كانت من بين الوفود التي استقبلها الرسول ﷺ ومن بين وفود القبائل كان وفد قبيلة بني تميم؛ ولم يكن هدفها مبايعة الرسول ﷺعلى الدين، بل أتت على من أجل المفاخرة على عادة الجاهليين، وعندما أشرفوا على حجراته ارتفعت أصواتهم يا محمد جئنا نفاخرك فأخرج إلينا، قال تعالى فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الحجرات: 3] فوقف خطيبهم عطارد بن حاجب وحاول أن يعدد مآثرهم وتقطعت به الأسباب، لأن خطيب الرسول ﷺ علا كعبه بشاهدتهم، كما أفحم حسان بن ثابت شاعرهم الزبرقان بن بدر بعينية من عيون شعر المديح النبوية، وكانت هذه العينية بمثابة أسلحة الدمار الشامل؛ التي نسفت عنجيتهم ودكت حصون كفرهم بفضل الله تعالى، ويشهد لها تاريخ الأدب العربي بأنها القصيدة الوحيدة التي أسلم بسببها وفد قبيلة بأكمله جاءوا للمنافرة، ورجعوا بفضل الله إلى ديارهم وكل فرد منهم داعية للدين الجديد ومصدقا لرسالته ﷺ:

إنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ
أَكرِم بِقَومٍ رَسولُ اللهِ قائِدُهُم ... إِذا تَفَرَّقَتِ الأَهواءُ وَالشِيَعُ
أَهدى لَهُم مِدحَتي قَلبٌ يُؤازِرُهُ ... فيما يُحِبُّ لِسانٌ حائِكٌ صَنَعُ ا[1]

لقد صب شاعر الدعوة المحمدية حسان بن ثابت عصارة قريحته في هذه القصيدة، واستحسنها الحضور، وأشادوا بها، وشهد بنو تميم على ذلك، لأنها بفضل الله تعالى سلبت عقولهم، وأسرت قلوبهم، وما كان من زعيم الوفد؛ وهو الأقرع بن حابس إلا أن قال:" وأبي إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا لشاعره أشعر من شاعرنا " [2] وبفضل الله تعالى أسلم الوفد بأكمله، ونزع الله تعالى ما في صدورهم من غل للإسلام فرجعوا وقد قذف الله تعالى نور الإسلام في صدورهم، وأجزل لهم الرسول ﷺالهدايا والهبات.

نستنتج مما سبق أن الوفادة التي كانت من أجل المفاخرة وظفها الرسول ﷺ؛ لخدمة الدين الإسلامي، بعد أن كانت الغاية منها تدور في فلك مفاخر القبيلة. أي من مكاسب دنيوية ومطامع قبلية فأصح هدفها الدين الجديد وغايتها مرضاة الله تعالى ونصرة نبيه ﷺ.

[1] ديوان حسان بن ثابت، ص152

[2] الرافعي، مصطفى (1971م)، تاريخ آداب العرب، لبنان: دار الكتب العلمية، ص247.

كان لعرب الجاهلية علومهم ومعارفهم وعلى بساطتها، لكنها كانت تسير دولاب حياتهم اليومي وما يحتاجون إليه من مهارات وخبرات هنا نلاحظ كيف تلاقحت ثقافة حسان بن ثابت ـ وهو أحد سفراء القوافي؛ إذ كانت تربطة علاقات طيبة مع الملوك من خارج نطاق جزيرة العرب ـ مع الثقافات الأخرى وانصهرت عصارة هذه الثقافات في بوتقة الحضارة الإسلامية وتفاعلت معها.

في مضمار السياسة الداخلية؛ كانوا في قمة جاهليتهم على وعي تام بأهمية التحالف من أجل المصلحة العامة ويشهد عليهم حلف الفضول بذلك، الذي عقدوه تحت اسم حلف الطيبين وذلك قبل مولده ﷺ وجاء في سيرة ابن كثير:" أن قريشًا تحالفوا بعد موت قصي، وتنازعوا في الذي كان جعله قصى لابنه عبد الدار من السقاية والرفادة واللواء والندوة والحجابة، ونازعهم فيه بنوعبد مناف وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش وتحالفوا على النصرة لحزبهم "[1] ومن الأحلاف كذلك حلف الفضول، وشهده الرسول ﷺوهو في العقد الثاني من عمره، ووضح ابن هشام سبب عقده:" تداعت قبائل من قريش إلى حلف...، فتعاقدوا وتهادوا على أن لا يجوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمة حتى ترد مظلمته...، وكام حلف الفضول أكرم حلف سُمع به وأشرفه في العرب"[2] وكان الغرض من هذين الحلفين نصرة المظلوم ومساعدة الضعيف وردع الظالم وهنا يتضح مدى ما بلغه المجتمع الجاهلي من إدراك فضلًا عن الوعي وكلاهما مؤشر إيجابي يوضح تقدم المجتمع وتحضره، ومؤشر إيجابي لوعي المجتمع، وكان هذا التعاون من صميم تعاليم الدين الإسلامي، عليه نستنتج أن وكان من ثقافتهم في مضمار المحافظة على استقرار المجتمع واستتباب الأمن تكوين الأحلاف، التي أبدلهم الله تعالى خيرا منها إذ تحولت القبيلة بفضل الإسلام إلى رابطة الأمة. يرى (ليوبو لدفابس):" أنّ الحضارة الإسلامية انفردت وتميزت بأنّها ظهرت وأشرق نورها –بإذن ربها– دون سابق عهدٍ لها أو انتظار، وهذه الحضارة الإسلامية قد جمعت كل المقومات الضرورية والأساسية للحضارة المكتملة والشاملة؛ ذلك أنّها قامت في مجتمع وبيئة واضحة المعالم، وللمجتمع نظرته الخاصة إلى الحياة، ونظامه التشريعي المكتمل، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض له نهجه المحدد، فقيام الحضارة الإسلامية لم يكن ثمرة تقاليد ماضية أو وليدة تيارات فكرية متوارثة، إنّما هي وليدة أعظم حدث تاريخي، وهو نزول القرآن الكريم على رجل فذٍّ في تاريخ البشرية محمد ﷺ"[3].

حقا لقد تفردت الحضارة الإسلامية وتميزت بين الحضارات الأخرى؛ وقمة تميزها يمكن في تفاعلها مع مختلف الحضارات حيث تمكنت من التواصل معها؛ وتفاعلت معها وأثرت فيها وتأثرت

---

[1] ابن كثير، اسماعيل بن عمر (1976م)، السيرة النبوية، لبنان: دار المعرفة. ج1/258.

[2] ابن هشام، عبد الرحمن بن عبد الملك (1990م)، السيرة النبوية، لبنان: دار الكتاب العربي. ج1 / 153.

[3] الجندي، أنور (د.ت)، الحضارة في مفهوم الإسلام، القاهرة: دار الأنصار، ص3.

بها وكانت التعاليم الإسلامية مصدرها، لذا سمت بالقيم الإنسانية، والدينية والاجتماعية بل راعت كل حاجيات النفس البشرية المادية والمعنوية وهنا يكمن سر تفوقها وغلبتها على غيرها من الحضارات والثقافات.

نستخلص مما سبق أن العصر الجاهلي؛ الذي سبق البعثة المحمدية ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ بحوالي قرن ونصف أو قرنين من عمر الزمان، كان تمهيدًا للعصر الإسلامي؛ لذلك سادت فيه القيم والمبادئ والمكارم وإن وجدت العديد من السلبيات، وكان حاله حال أي مجتمع تتفاوت فيه القيم بين صالح وطالح لذلك قال: ﷺ " إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ [1] في هذه البيئة ولد ونشأ وترعرع ﷺ على قيم وفضائل وسؤدد هيأته للقيام بأعظم مهمة في تاريخ البشرية؛ وهي إبلاغ آخر الرسالات السماوية، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام: 124] هذا المجتمع الذي شهد ميلاد أفضل خلق الله، كان بمثابة المقدمة والتمهيد للمجتمع الإسلامي، لقد ترك المجتمع الجاهلي بعاداته وتقاليده وأعرافه بصماته في المجتمع الجديد الذي هذبه الإسلام ونقاه من الشرك والرجس وسما به.

ظلت ملامح المجتمع الجاهلي الإيجابية باقية، لكن هذبها الإسلام وأصبحت أكثر إيجابية وفعالية، بل حث الدين الجديد على التمسك بالفضائل والمكارم الي كانت سائدة فيما بينهم من قبل، ولم يأباها أو يرفضها، ولكن التعاليم الإسلامية هذبت الأنفس والألسن وسمت بالحس الأدبي والذوق الفني، حتى على المستوى العام والخاص، كذلك كان منطلق الحراك الأدبي والثقافي في صدر الإسلامي ما كان سائدًا قبله؛ لأن الخطباء والشعراء لم يتجاوزوا ما ألفوه من موضوعات أو أغراض شعرية أنشدوها في جاهليتهم، ومن ذلك هيكل بناء القصيدة في صدر الإسلام ظل كما كان سائدا في الجاهلية، حتى مطلع القصيدة ظل يدور في فلك الغزل أو الطلل؛ لكن من الشعراء الإسلاميين من استهل قصيدته بالشوق والحنين إلى الديار الحجازية المقدسة أو المرابع النبوية الشريفة ـ على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ، حافظوا بعد البعثة على الهيكل العام للقصيدة لكن مع اختلاف التوجه. فضلًا عن ذلك حتى معتقداتهم الجاهلية بكل ضروبها وتباين مشاربها؛ فطنوا إلى عدم فاعليتها وكونها لا تضر ولا تنفع، فحكموا عقولهم وتأملوا في الدين الجديد؛ وقارنوا بينه وبين أصنامهم وأوثانهم وكل معبوداتهم وأنار الله بصيرتهم وشرح صدورهم، وهداهم بفضله ورحمته إلى الحق؛وتحولوا من حياة الضلالة والسفه والطيش إلى عبادة خالق الكون وصدقوا وآمنوا برسالة النبي ﷺ، ونستخلص أن معتقداتهم بما فيها من شرك وضلال، وسفه وطيش؛ لكن هيات لهم أسباب المقارنة ليميزوا بين الحق والباطل ومنهم من شرح الله تعالى صدره واتبع الحق ومنهم من عاند واستكبروظل على جهله وضلالته.

[1] البخاري، الأدب المفرد، حديث رقم 273.

تميزت الحضارة الإسلامية بالنظرة الشمولية واستشراف المستقبل؛ لذا هذبت بعض العادات والتقاليد الإيجابية؛ التي كانت سائدة في العصر الجاهلي ونقحتها بما يتلاءم مع الدين الجديد، ثم تفاعلت هذه المحاور الإيجابية وأصبحت من منظومة الحضارة الإسلامية. وإذا كانت الحضارة الإسلامية تفاعلت مع الحضارات الأخرى على المستوى الخارجي واستفادت من خُلاصة تجاربها الإيجابية، فقطع شك تفاعلت مع المجتمع الذي اختصه الله تعالى برسالته؛ لذا كان من أهم أولوياتها تطبيق شرع الله ودينه الذي ارتضاه لعباده، ولم ترفض القيم الفاضلة التي تعارف عليها المجتمع الجاهلي؛ قبل نزول الوحي الأمين.

الخاتمة:

- لقد شرف الله تعالى العصر الجاهلي؛ إذ اختارة توقيتًا لآخر رسالاته السماوية للثقلين، وشرف أرض الحجاز عندما أمر الملائكة ببناء بيته الحرام بمكة، كما شرف الأميين عندما بعث فيهم محمدًا ﷺ نبيًا ورسولا، وشرف مجتمع جزيرة العرب عندما هيأه لاستقبال آخر رسالاته.
- أثبتت الدراسة أن ثقافة العصر الجاهلي كانت أمشاجا من عدد من الثقافات، وكانت ثقافاتهم ثمرة طيبة من ثمار حياتهم السياسية والثقافية؛ فضلًا عن رحلاتهم التجارية إلى خارج أرض الحجاز، حيث تعرفوا على ثقافات جديدة وحضارات كانت قد بلغت شأوا عظيما في ذلك الزمان، وأدي الاحتكاك بالحضارات الأخرى والتواصل معهم إلى النهوض بالثقافة العامة وكان له أثر واضح في تطور المجتمع وتقدمه.
- رفعت التعاليم الإسلامية من شأن عادات عرب الجاهلية وتقاليدهم وأعرافهم؛ التي كانت سائدة في الجاهلية ونقحتها بما يتلاءم مع الدين الجديد، ثم تفاعلت هذه المحاور الإيجابية وأصبحت من منظومة الحضارة الإسلامية.ونظمت حياتهم وفق التعاليم الإسلامية السمحة، وسمت بإنسانيتهم وبحسهم الأدبي؛ فضلًا عن النهضة الفكرية؛ وإذا كانت الحضارة الإسلامية تفاعلت مع الحضارات الأخرى على المستوى الخارجي واستفادت من خلاصة تجاربها الإيجابية، فقطع شك تفاعلت مع المجتمع الذي اختصه الله تعالى برسالته. وأمنت على إيجابياته، ومحاور الجمال التي يتمتع بها؛ بينما رفضت ما يتنافى مع سماحة الدين وتعاليمه السامية.وهكذا تفاعلت الحضارة الإسلامية مع منظومة الثقافة المحلية، تأثيرًا وتأثرًا.
- استثمرت الحضارة الإسلامية الرحلات الخارجية التي اعتاد عليها العرب في فترة الجاهلية ووظفوها في الفتوحات الإسلامية، وكان لهم احتكاك قبل البعثة لكن في فترة الفتوحات تم الاحتكاك بالأمم الأجنبية والامتزاج بها على نطاق أوسع بلغ درجة المصاهرة، وكما استفادوا من ثقافات الأمم أيضا استفادوا بعد الإسلام من ثقافتها في شتى المجالات، ووظفت الحضارة الإسلامية مهارات الأمم

وخبراتها التراكمية في مجالات عديدة، واقتبست منهم بعض مظاهر الحضارة المعنوية الإيجابية التي اهتدوا لها بالفطرة ولا تتعارض مع التعاليم السماوية. وهكذا استثمرت الحضارة الإسلامية إيجابيات الحضارات الأخرى وثقافتها، وتفاعلت معها تأثيرا وتأثرا. كما استفاد منها عرب الجاهلية.

- هيأ الله تعالى الأسباب للحضارة الإسلامية، ومهد لها بمجتمع يحافظ على المكارم والفضائل والسؤدد بل يفخر بذلك؛ وهكذا جمعت الحضارة الإسلامية كل المقومات الضرورية والأساسية للحضارة المكتملة والشاملة؛ لأنّها من لدن حكيم خبير.

خلاصة القول: الحضارة الإسلامية لم تكن نتاج تلاقح ثقافات متباينة أو خلاصة ما جادت به القرائح البشرية من رؤى وأفكار، أو ما تعارفت عليه المجتمعات المختلفة في شتى بقاع المعمورة، كذلك لم تكن عصارة خبرات تراكمية؛ ولكنها ثمرة طيبة هيأ لها فاطر السموات والأرض الأسباب بنزول الوحي الكريم على سيد الأنبياء والمرسلين، وكتب الله تعالى لها في سابق علمه التميز والتفرد والغلبة وعلو الكعب على جميع الحضارات التي صنعتها الأمم والشعوب. لكنها تفاعلت مع البيئة التي اختارها الله تعالى لتحتضن رسالته التي وجهها للثقلين، كما تفاعلت مع الثقافات الأخرى والحضارات المتباينة وأثرت فيها وتأثرت بها، وما أثر فيها اخضعته للتعاليم الإسلامية حتى تعلو كلمة الحق ويحقق الإنسان السعادة في حياتيه، وهكذا تركت منظومة الثقافة في العصر الجاهلي بصماتها في الحضارة الإسلامية؛ التي كتب الله تعالى لها الفوز والغلبة على جميع الحضارات؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

التوصيات:

ضرورة لفت الانتباه إلى أهمية المحافظة على التعاليم الإسلامية، والتمسك بالفضائل والمكارم؛ لأ، ها من صميم التعاليم الإسلامية؛ كذلك تعكس الوجه الحضاري والإنساني للإسلام. لأنه أساس الحضارة التي جمعت كل المقومات الضرورية والأساسية للتمدن والتحضر؛ لأنّها من لدن حكيم خبير.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

- إبراهيم، محمد حمزة (2012م)، الأديان في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام من خلال الشعر الجاهلي، مجلة الخليج العربي، المجلد40، العدد2.
- ابن الورد، عروة بيروت (1989م)، ديوان عروة بن الورد، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن ثابت، حسان (1994م)، ديوان حسان بن ثابت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن سعد، عمرو (1998م)، ديوان المرقشين، بيروت: دار صادر.
- ابن عبد ربه، أحمد (1946م)، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، القاهرة: لجنة التأليف والنشر.

- ابن كثير، اسماعيل بن عمر (1976م)، السيرة النبوية، لبنان: دار المعرفة.
- ابن كثير، اسماعيل بن عمر (1999م)، تفسير ابن كثير، الرياض: دار طيبة.
- ابن منظور، محمد بن مكرم (د. ت)، لسان العرب، بيروت: دار صادر.
- ابن هشام، عبد الرحمن (1990م)، السيرة النبوية، لبنان: دار الكتاب العربي.
- البخاري، محمد بن إسماعيل (1987م)، صحيح البخاري، بيروت: دار ابن كثير.
- البكري، أبو عبيد (1992م)، المسالك والممالك، جزآن: دار الغرب الإسلامي.
- التبريزي، الخطيب (1992م)، شرح ديوان عنترة بن شداد، لبنان: دار الكتاب العربي.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (1998م)، البيان والتبيين، مصر: مكتبة الخانجي.
- الحموي، ياقوت (د.ت)، معجم البلدان، لبنان: دار الفكر.
- الرافعي، مصطفى (1971م)، تاريخ آداب العرب، لبنان: دار الكتب العلمية.
- زهير، كعب (1997م)، ديوان كعب بن زهير، تحقيق على فاعور، لبنان: دار الكتب العلمية.
- الشـــمري، ظاهر (2011م)، لمحة عن الأحوال الاقتصـــادية عند العرب قبل الإســـلام، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، المجلد4، العدد2.
- الصلت، أمية (1934م)، ديوان أمية بن أبي الصلت، بيروت: المكتبة الأهلية.
- العبادي، عدي بن زيد (1965م)، ديوان عدي بن زيد، ، بغداد: دار الجمهورية للنشر والطبع.
- عبد النور، جبور (1979م)، المعجم الأدبي، لبنان، دار العلم للملايين.
- عشا، علي (2006م)، جدل العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، المجلد83، الجزء3.
- عفيفي، محمد الهادي (د. ت) في أصول التربية، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.
- على، جواد (1970م)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لبنان: دار العلم للملايين.
- القرطبي، حمد بن أحمد (د. ت)، الجامع لأحكام القرآن، لبنان: عالم الكتب.
- القيس، امرؤ (د. ت)، ديوان امرئ القيس، لبنان: دار صادر.
- القيسي، نوري حمودي (1980م)، الشعر والتاريخ، العراق: دار الحرية للطباعة.
- المراجع:
- هرماس، عبد الرازق (1998م)، مســائل نافع بن الأزرق في ميزان النقد، حولية كلية الشــريعة والقانون والدراسات الإسلامية، العدد 16.
- الهلالي، عماد (2012م)، الثقافة بين المفهوم الغربيّ والإســـلامي الإئتلاف والإختلاف. مجلة المنهاج، العدد67.
- الهيثمي، علي (2001م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت: دار الكتاب العربي.